النهاية

يبدو أن اتهام قريش للرسول صلى الله عليه وآله وصحبه مرة بقول الشعر وأخرى بعمل السحر وبيان القرآن الكريم لموقفه في الآيات المكية إذ نزهته عمّا يصفون لم ينته، وعلى وفق الرؤية الإلهية كان لا بُد من المزيد لغرض التطمين وبيان الفارق بين الدعوة إلى الله عز وجل والدعوة إلى الشيطان، وأن القول حين يُزيف ويُجانب الصواب يدخل في مضمار الوصفين (الشعر/ شاعر ،وسحر /ساحر) ففي سورة (الشعراء) نرى أن لفظة (السّحَر) وما اشتق منها جاءت في آيات متقاربة فأولها كانت لفظة (ساحر) [1]، وجاء مرة بصيغة المبالغة (سحار) [1]، إما اللفظ من حيث اسميته (سحر) كان نصيبه مرتين [1]، وكان المُمارس للفعل (السحرة) ورد في أربع آيات [1]، وجاءت لفظة (المُسَحّرين) مرتين [1]،

ربّما مَن يسال لمّ لم يسمها الله عز وجل بسورة السحر أو بما هو مشتق من اللفظة؟ وعند التفتيش في اسماء السور القرآنية المباركة لن نجد تسمية توحي بسلبية المفهوم، إذ إن المسألة هنا لم تبحث في ماهية السحر وإنما في تأثيره وما يُحدث في النفس من إيهام لدى الناظر، وخلق واقع جديد غير قائم على الواقع أصلا ً، وكأنّ التأثير الحاصل ممكن أن يَصدر من فعل كما يُمكن أن يكون عن طريق كلمة ف التوجيه الفكري بطرح نسق معين من الكلمات والسيطرة به على العقول لا يختلف عمّا يُقدم السحرة من إيهام للناظرين وكأن ما يُقدموه حقيقة ولكنه في الحقيقة يتلا قى مع سحر الكلمات في حقيقته هو.

واعتقد أن مجيْ لفظة الشعراء مرة واحدة في هذا السورة ومع ذلك سُميت باسمهم مع أن القرآن الكريم ينتهج في تسمية سوره المباركة الاعتماد على الحدث أو العبرة المُتوخاة من وراء التسمية أي أن الافكار والمضامين هي التي تدفع بالعنوان /التسمية على رأس الآيات فالمكانة لا تُعطَ للأشخاص، وإنما لما يحملون من أفكار فبقدر سُموها تكون المكانة. فهناك (آل عمران والنساء والانفال والنور والمؤمنون و الفلق ومحمد والفتح و الحجرات والحديد و المجادلة والحشر و الممتحنة .....) ، لذا فإن التسمية هنا جاءت تكريماً لهم أو لنقل تكريماً لما ق الوه وانبروا للدفاع عنه فحين نزلت الآية:" وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ....."[1] ويذكر العسقلاني "لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وهم يبكون فقالوا يا رسول الله أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء فقال إقروا ما بعدها إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنتم وانتصروا من بعد ما ظلموا أنتم". [1] كما أن الشعر هو فعل قولي وقد جاءت السورة توضح عمليات العناد والمجادلة والرفض لما جاء به الرسل وهذه الأفعال تعتمد على ما تحمل الألفاظ من قدرة اقناعية في صياغتها؛ لأن الأفكار تطرح عن طريق أفعال كلا

امية تنهض بالمضمون الإعجازي. وثمة مسألة أخرى هي أن الشعر يغترف من ذات المعين الذي صيغ منه القرآن الكريم، وإن المُتلقي واحد، والغرض أيضاً واحد وهو التأثير، إلا أن الهدف المتوخى من وراء هذا التأثير يختلف فالقرآن ينحو للسمو بـ النفس البشرية في حين أن الشعر في أكثره لا يفعل ذلك على الرغم من التشابه في ا لأدوات والاختلاف في الصياغة والهدف.

إن السورة الكريمة عرضت الكثير من الأحداث انتهت بتلك التسمية الملائمة، ومع تغير المكان تغير أهله وصار بالإمكان تغيير الخطاب، إذا ما عرفنا أن أهل المدينة لهم صلات بالدعوة قبل الهجرة إليها[1] ، وأبدوا تقبلهم لها في حال انتقلت إليهم ، وعند حدوث الانتقال فإن ثمة ملامح لبداية دولة ولكنها محاطة بعدم التقبل والترقب، هذا ما جعل القرآن الكريم يمنح استثناءً للشعراء مبنياً على الدور إيجابي الذي من الممكن أن يقدموه إذ إن الحرب التي بدأت كلامية لما تزل مستمرة، مع إمكانية تطورها إلى نواح أخرى منها العسكرية والاقتصادية، وبهذا تكون الحاجة إلى الكلامية أكثر إذ لا بُد لها من المُسايرة والاستيعاب فثمة أفكار أخرى من المؤكد يُمكن إستثمارها في الرد والإيضاح ، فلم يكن من المنطق الإستغناء عن قوة الرد الوحيدة إزاء الهجوم الكلامي المستمر من الطرف الآخر، كما أن توزيع الأدوار في ظل شبه الاستقرار أمر ضروري يُتوخى منه إحترام الآخر بوصفه كياناً ذا وجود، وله أهمية أوجبت تحمّله المسؤولية دعماً لذلك الوجود، وعلى هذا الأساس تم تصنيف الشعراء، "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"[1].

ويبنى على البعد المكاني في النزول مسألة مهمة هو الإقتران بالإيمان في مجتمع المدينة الداخل بالدين الجديد، وهذا غير موجود في مجتمع مكة، إذ صارت خصوصية للمكان والمنتمين له من الشعراء، وتم ذاك عن طريق الوصف الاستثنائي لهم. فالوصف هو الذي منح الرخصة بشكل مباشرة ولكنها جاءت بعد سلسلة من التوضيحات والتحذيرات تضمنتها الآية، ذلك لأن القرآن شمولي القراءة، أبدي الإ متداد، فالتصريح بمزاولة كتابته مشروطة بالإبتعاد عن الغواية وتزيين القول بما هو ليس حقيقياً، ثم أن خلق طرف آخر في المكان الجديد يُناوئ القديم، ليُفهم أن كلاهما يقول ذات الترتيب الكلامي فلماذا ذم الطرف الأول / شعراء قريش، في حين بورك للطرف الثاني / شعراء المدينة، ومن هنا يُبرز الفارق بينهما على أساس المضمون لا على أساس قيمة الأداة، بل أن مكانتها رُهنت بما تحمله وتقدمه. وهكذا ارتفعت مكانة الثاني وتضاءلت مكانة الأول، والدليل على ذلك أين الأشعار التي حُرب بها الدين الجديد في بداية ظهوره، وهكذا كان الدوام للذين آمنوا وعمل الصالحات، الذين كان الله جل وعلا حاضراً فيما يكتبون.

فنلحظ أن القرآن الكريم عالج الموضوع ونفاه في بداية الدعوة وعندما كان المكان والمجتمع يتعرض لهذه المسالة، بوصفها جزءاً من مما يعتقدوه بأنه حجة لهم، ثم غادر القرآن الكريم هذا الموضوع كي يُبين لهم أنه ليس ذو تأثير، وأن ثمة أشياء أخرى لا بُد للقران من أن يستكملها. كما أن فكرة الدفاع تركز على أن القرآن ليس

بشعر عن طريق نفي الصفة القول الشعري عن الرسول الكريم؛ لأن معرفة القول تنبأ عن قائل والقرآن يطرح نفسه قولا ً على لسان قائل، احتاج الأخير أن يكون بموصفات معينة تبعده عن الشبه في أن يكون هو مصدره.

لقد حسم القرآن الكريم في قوله تعالى : "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" [1]. أ لم يكن الرسول صل الله عليه وآله وصحبه من الانس،بل ان السورة تؤكد ما ذهب اليه الوليد بن المغيرة حين نفى أن يكون ما سمعه أن يكون من كلام الجن ، وهنا يؤكد القدير على أن الخلقين المعروفين لبعضهما حتى لو تكاتفا بما يمتلكان من امكانيات فلن يستطيعا الاتيان بما انزل على من اصطفته السماء، وعبر الله جل وعلا عن اجتماعهما لانهما شاركا في عملية الصراع منذ البداية مع أن الانس كان المحرك الاول للصراع حين بدأ الكثير منهم بالرفض لما طرح وقام بإدخال الطرف الثاني / الجن في الصراع مستعينين بما يفهمه الناس عنهم للتوظيف في الصراع ،وقد عادوا فاتهموه بأنه يمارس ما يفعلوه فهو يأكل ويمشي[1] كما يفعلون ،وفي النهاية أنا لا اختلف عنكم وانما أنا بشر ولكن ما اعطاني الخصوصية هو الوحي الذي اتلقى منه ما اقوله لكم [1] وليس ما تصوره أنتم لعامة الناس الذي ترمون من ورائه البقاء على السلطة وما تحمل من مميزات .